الايديولوجيا وفلسفة اللغة

ميخائيل باختين

باختين باحث سوفييتي، ولد في اول ١٨٩٥، وتوفي في موسكو ١٩٧٥. نشر دراسات عدة تحت اسماء مستعارة، وعندما غيّبه الموت تكشّف كواحد من أكبر المنظرين الماركسيين للأدب في القرن العشرين. والدراسة المترجمة، هنا، هي الفصل الأول، والثاني، من كتاب «الماركسية وفلسفة اللغة» (الطبعة الفرنسية، مينوي، باريس: ١٩٧٧. الطبعة الانكليزية، نيويورك، لندن، سيمينار برس ١٩٧٣). وقد نشر هذا الكتاب في العام ١٩٢٩، دون ان يضع اسمه عليه، بل وضع اسم احد تلاميذه: ف. ن. فولو شينوف. وقد طرح باختين، في كتابه، سؤال اللغة في العلاقات الاجتماعية، ثم درس علاقة اللغة بالمجتمع في حقل الاشارة. وبعد ان حدَّد الاشارة كحامل ايديولوجي أعاد سؤال اللغة الى سؤال الايديولوجيا، فدرس السؤال الاخير في تحديده الاجتماعي.

من اهم دراسات باختين: الفرويدية (١٩٢٧). الماركسية وفلسفة اللغة (١٩٢٩). ديستويفسكي، الشعرية والاسلوب (١٩٢٩). اعمال فرانسوا رابليه، والثقافة الشعبية في العصور الوسطى وفي عصر النهضة (١٩٦٥). الملحمة والرواية (١٩٦٥). المنهج الشكلي في علم الادب (١٩٢٨).

دراسة الايديولوجيات وفلسفة اللغة .

إكتسبت مسائل فلسفة اللغة ، مؤخراً ، راهنية وأهمية استثنائيتين ، في حقل الدراسات الماركسية . لقد اصطدم المنهج الماركسي مباشرة بهذه المسائل ، في معظم القطاعات الأكثر أهمية لتطوره العلمي ، وهو لن يستطيع التقدم صعداً وبشكل فعّال ، بدون أن يُخضع هذه المسائل الى اختبار خاص ، وأن يجد لها حلاً .

نقول منذ البدء ، أن تأسيس نظرية ماركسية في الابداع الأيديولوجي ـ الدراسات المتعلقة بالمعرفة العلمية ، الأدب ، الدين ، الأخلاق ... ـ ، مرتبط بشكل وثيق بمسائل فلسفة اللغة . يرتبط كل نتاج إيديولوجي بواقع ما ، طبيعياً كان أو إجتماعياً ، شأنه في ذلك ، شأن كل جسم فيزيائي ، سواء كان وسيلة إنتاجية أو منتوجاً إستهلاكياً ، لكنه إضافة الى ذلك ، وعلى نقيض الأجسام الفيزيائية ، فإنه يعكس ويزيح في انعكاسه ، واقعاً آخر خارجاً عنه . يتحدّد كل ما هو إيديولوجي بمرجع له ويحيل إلى شيء ما يقوم خارجاً عنه . بمعنى آخر : كل ما هو إيديولوجي **إشارة** ، فبدون إشارات لا وجود للايديولوجيا . فالجسم الفيزيائي ، مثلاً ، لا يساوي إلا ذاته ، إنه لا يشير الى شيء لكنه يتوافق فقط مع طبيعته الخاصة . في هذا الحال ، لا مجال للحديث عن الايديولوجيا أبداً .

مع ذلك ، يمكن إدراك كل جسم فيزيائي كما لو كان رمزاً : هذا هو حال الترميز بموضوع فيزيائي وحيد خاضع لمبدأ السكون والضرورة الطبيعية (مبدأ الحتمية) . إن كل صورة فنية ـ رمزية تصدر عن موضوع فيزيائي خاص هي نتاج إيديولوجي . يتحول الموضوع الفيزيائي في هذا الحال الى إشارة ، بدون أن يكف عن كونه جزءاً من الواقع المادي ، فيعكس ويزيح بمعنى ما واقعاً آخر .

هذا هو أيضاً حال وسيلة انتاجية . فالأداة الإنتاجية ، في ذاتها ، ليس لها معنى خاص ، فلها وظيفتها فقط : أن تلعب هذا الدور أو ذاك في الانتاج . تلعب الأداة هذا الدور باتفاق مع ذاتها كشيء خاص ، بدون ان تعكس او تمثّل شيئاً آخو . يمكن للأداة ، مع ذلك ، أن تتحوّل أيضاً إلى إشارة إيديولوجية : نستعيد هنا مثال المنجل والمطرقة ، شعار الاتحاد السوفييتي ، حيث يأخذ المنجل والمطرقة ، معنى إيديولوجياً محضاً . لهذا يمكن القول : يمكن لكل أداة إنتاجية أن تلبس معنى إيديولوجياً ، فالأدوات التي كان يستعملها إنسان ما قبل التاريخ كانت مغطاة بالتمثيلات الرمزية وبالنقوش ، أي بالاشارات . لكن هذا التعامل مع الأداة لا يحيلها في ذاتها الى إشارة .

يمكن ، من ناحية ثانية ، إعطاء الأداة شكلاً فنياً ، يتوافق فيه الشكل بانسجام مع الوظيفة الانتاجية . ويتحقق ، هنا ، تقارب أقصى ، تقارب يصل حدود الاندماج ، بين الإشارة والأداة . مع ذلك ، فاننا نبصر أيضاً خط تمايز مفهومي فاصلاً : لا تصبح الأداة ، من حيث هي كذلك ، إشارة ، كما لا تصبح الاشارة ، من حيث هي كذلك ، وسيلة إنتاجية .

يمكن لأي منتوج إستهلاكي أن يتحول بالطريقة ذاتها إلى إشارة إيديولوجية . فيصبح الخبز والخمر ، مثلاً ، رموزاً دينية في القربان المسيحي للعشاء الرباني . لكن المنتوج الاستهلاكي ، في ذاته ، ليس إشارة أبداً . إن المنتوجات الاستهلاكية ، كالأدوات ، يمكن لها أن ترتبط بإشارات إيديولوجية ، بدون أن يمحو هذا الارتباط خط التمايز المفهومي القائم بينهما ، فشكل الخبز الخاص ، لا تبرّره فقط وظيفته كمنتوج استهلاكي : يملك الشكل ، مهما كان بدائياً ، قيمة إشارة إيديولوجية (مثلاً : الخبز الذي يأخذ شكل حرف ثمانية ، أو شكل زهرة) .

يوجد ، إذن ، إلى جانب عالم الظواهر الطبيعية والأدوات التقنية والمنتوجات الاستهلاكية ، عالم خاص ، هو : **عالم الإشارات** .

الإشارات بدورها مواضيع مادية ، ستميّزة ، وقد رأينا كيف يمكن أن يصبح كل منتوج طبيعي او تقني او استهلاكي ، إشارة ، حاصلاً ، بذلك ، على معنى يتجاوز خصائصه الذاتية . لا توجد الإشارة كجزء من الواقع فحسب ، بل أنها تعكس هذا الواقع وتزيحه في واقع آخر . ويمكنها في هذا الانعكاس المنزاح أن تشوّه الواقع ، أو أن تبقى مخلصة له ، كما يمكنها أيضا أن تدركه من وجهة نظر خاصة ، الخ ... وفي ذلك ، تخضع كل إشارة الى معايير التقويم الأيديولوجي (أي : هل هي حقيقية ، خاطئة ، صحيحة ، مبرّرة ، مقبولة ؟ إلخ ...) . ويتوافق حقل الأيديولوجيا مع حقل الإشارات : يتوافقان بشكل متبادل ، فحيث نجد الإشارة ، نجد الأيديولوجيا أيضا : **كل ما هو إيديولوجي له قيمة إشارية** .

تسيطر في ميدان الإشارات ، أي في الفضاء الأيديولوجي ، إختلافات عميقة ، إذ أن هذا الميدان ، هو في نفس الوقت ، ميدان التمثيل ، والرمز الديني ، والصيغة العلمية والشكل الحقوقي ، الخ ... فكل ابداع إيديولوجي ، في حقله الخاص ، له نمط توجّهه إلى الواقع ، وكل حقل يزيح في إنعكاسه واقعه بطريقته الخاصة به ، ويستعمل وظيفته في مجمل الحياة الاجتماعية . إن الصفات الإشارية للظواهر الأيديولوجية هي التي تؤدي إلى إدراج كل هذه الظواهر في ذات التعريف العام .

ليست كل إشارة إيديولوجية هي مجرد انعكاس ، أو ظل للواقع ، إنها أيضا مقطع مادي من الواقع . فكل ظاهرة تقوم بوظيفتها كإشارة إيديولوجية لها تجسّدها المادي الخاص ، سواء كانت صوتا ، أو كتلة فيزيائية ، لونا ، حركة جسم أو أي شيء آخر . بهذا المعنى ، يكون واقع الإشارات موضوعياً تماماً ، الأمر الذي يفرض ، إذن ، منهج دراسة مُوجِّدة وموضوعية . إن الإشارة ذاتها وكل الآثار الناتجة عنها (كل هذه الأفعال ، وردود الأفعال والإشارات الجديدة الصادرة عنها في الوسط الاجتماعي القائم) تتضح في التجربة الخارجية . هذه نقطة شديدة الأهمية . مع ذلك ، فمهما بدا هذا أولياً وبديهياً ، فإن دراسة الأيديولوجيات لم تستخلص حتى الآن كل النتائج الصادرة عنه .

تضع الفلسفة المثالية والرؤية النفسانية للحضارة الأيديولوجيا في داخل الوعي ، وتؤكد أن الأيديولوجيا هي واقع صادر عن الوعي ، وان الوجه الخارجي للإشارة ، ليس أكثر من غطاء ، أو وسيلة تقنية لتحقيق الأثر الداخلي ، أي لتحقيق الادراك . تنسى المثالية كما تنسى النزعة النفسانية أن الادراك ذاته ، لا يمكن أن يتجلى إلا عن طريق مواد إشارية (مثال : القول الداخلي) . وأن الإشارة تعارض الإشارة ، وأن الوعي لا يمكن أن يصدر ، وأن يتأكد كواقع ، إلا عن طريق التجسّد المادي في الإشارات . يقوم إدراك إشارة محددة ، قبل كل شيء ، على التقريب بين الإشارة المدركة (بفتح الراء) وإشارات أخرى تم إدراكها في وقت سابق ، بمعنى آخر : إن الإدراك هو جواب على إشارة بمساعدة إشارات أخرى . وهذه السلسلة من الإبداع والإدراك

الايديولوجيين ، والتي تنتقل من إشارة ، إلى إشارة جديدة ، هي سلسلة واحدة ومستمرة : تعبر بلا انقطاع من حلقة ذات طبيعة إشارية (أي ذات طبيعة مادية أيضا) إلى حلقة أخرى ذات طبيعة مماثلة تماماً . لا تنكسر السلسلة في أي من مواضعها ، ولا تتيه في الوجود الداخلي في أي من لحظاتها ، أي لا تتيه في وجود ذي طبيعة غير مادية ، وغير متجسّد في العالم . الإشاري .

تمتد هذه السلسلة من وعي فردي إلى وعي فردي ، رابطة البعض بالبعض الآخر . ولا تصدر الإشارات في النهاية إلا من سيرورة التفاعل بين وعي فردي وآخر ، علما أن الوعي الفردي ذاته مليء بالإشارات . لا يصبح الوعي وعيا إلا عندما يمتلىء بالمضمون الأيديولوجي (الإشاري) ، أي ، فقط في سيرورة التفاعل الاجتماعي .

على الرغم من الفروق المنهجية العميقة بينهما ، فإن الفلسفة المثالية تعاود ذات الأخطاء الأساسية ، التي تقع فيها النزعة النفسية في تعاملها مع موضوع الحضارة . فعندما يقيمان الأيديولوجيا في مستوى الوعي ، فانهما يحولان دراسة الأيديولوجيات إلى دراسة الوعي وقوانينه ، سيان إن تم ذلك بتعابير متعالية او بتعابير تجريبية ـ نفسانية . لا يؤدي هذا الخطأ الى التشوّش المنهجي في تعامله مع التآصر بين ميادين معرفية مختلفة فحسب ، بل يؤدي أيضا إلى تشويه كامل للواقع المدروس . يحشر الابداع الأيديولوجي ، الذي هو واقع مادي وإجتماعي ، في إطار الوعي الفردي ، والذي يحرم هو بدوره من كل رباط واقعي : يصبح الوعي كل شيء أو لا شيء .

يصبح الوعي في حقل المثالية هو كل شيء : يقوم في مكان ما خارج الوجود والتحديد . في الواقع ، إن تسامي الوعي ، لم يكن في النظرية المثالية إلا أقدم رابطة مجردة بين الأشكال والمقولات الأكثر عمومية للابداع الأيديولوجي . أما النزعة الوصفية النفسانية ، فانها تقارب الموضوع بشكل نقيض ، يصبح الوعي لا شيء : إنه مجرد تراكم لردود أفعال نفسية ـ فيزيولوجية عارضة ، تفضي ، عن طريق معجزة ، إلى خلق إيديولوجي دالّ وموحّد . فعندما يؤوّل التحديد الاجتماعي الموضوعي للخلق الأيديولوجي ، بشكل خاطىء ، يصبح مطابقاً لقوانين الوعي الفردي ، فإنه يجب بالضرورة ، إخراج هذا التحديد من مكانه الحقيقي ، ونقله إما إلى سماء المسكن الإلهي للنزعة المتعالية ، أو إلى الكهوف ما قبل ـ الاجتماعية للعضوية النفسية ـ الفيزيولوجية ، البيولوجية .

لا يمكن شرح المستوى الأيديولوجي بتعابير تشير إلى جذور فوق ، أو ، تحت ـ إنسانية . إن مكانه الحقيقي هو في داخل المواد الاجتماعية الخاصة للإشارات التي خلقها الإنسان ، وما خصوصيته إلا في كونه قائماً بين أفراد يربطهم نظام ، وفي كونه وسيلة إيصال بينهم .

لا تظهر الإشارات إلا فوق أرض اجتماعية . أكثر من ذلك ، إن هذه الأرض لا يمكن تعميدها باسم « طبيعية » بالمعنى الدارج للكلمة : لا يكفي جمع إثنين من الجنس البشري ليصبح توليد الإشارات ممكناً . فمن الضروري أن يكون هذان الاثنان منظمين اجتماعياً ، أن يشكلا مجموعة (وحدة اجتماعية) : هذا هو الشرط الضروري لتكوين نسق من الإشارات .

ليس الوعي الفردي عاجزاً عن شرح أي شيء فحسب ، بل الأمر على عكس ذلك تماماً ، فالوعي لا يشرح ذاته إلا انطلاقاً من وسط إيديولوجي واجتماعي .

الوعي الفردي هو واقع اجتماعي ـ إيديولوجي . وطالما لا يتم الاعتراف بهذا الواقع وبكل النتائج الصادرة عنه ، فانه لن يكون ممكناً بناء علم نفس موضوعي أو بناء دراسة موضوعية للأيديولوجيات .

إن عدم تحديد مسألة الوعي هو الذي خلق جملة من المصاعب وولّد هذا الارتباك اللامترامي الذي نشهده في كل الحوار الدائر حول علم النفس او حول دراسة الأيديولوجيات . بل أصبح الوعي هو الملاذ المجهول لكل بناء فلسفي ، إن لم يكن قد تحول إلى مستودع مهجور تلقي فيه كل المسائل التي لم تعثر على حلها ، وكل النفايات التي لا يمكن حلها موضوعياً . وعوضاً عن محاولة إيجاد حل موضوعي لمسألة الوعي ، إستعمل مشجب الوعي لتحويل التصورات الموضوعية والواضحة إلى تصورات ذاتية وعائمة .

ينضوي التعريف الموضوعي الممكن للوعي في مدار الحقل الاجتماعي ، إذ ان الوعي لا يمكن أن يشتق من الطبيعة . كما حاولت وتحاول ، المادية الميكانيكية الساذجة وعلم النفس المعاصر (تحت أشكاله المختلفة : البيولوجي ، السلوكي ، الخ ..) ، كما ان الأيديولوجيا لا يمكن ان تشتق من الوعي ، كما تدعي المثالية والنزعة الوضعية النفسانية . يتشكّل الوعي ويأخذ وجوده المحدّد في الإشارات التي تخلقها مجموعة منظمة عبر علاقاتها الاجتماعية . يتغذّى الوعي الفردي بالإشارات ، يجد فيها مادة تطوّره ، ويعكس منطقها وقوانينها . فمنطق الوعي هو منطق الإيصال الأيديولوجي ، ومنطق التفاعل الإشاري لمجموعة اجتماعية . فإذا حرمنا الوعي من مضمونه الايديولوجي والإشاري ، لم يبق منه شيء . فهو لا يجد ملاذاً إلا في الصورة ، في الكلمة ، في الإيماءة الدّالة ، الخ .. وخارج هذه المواد ، يتراجع إلى فعل فيزيولوجي عارٍ ، تعوزه إنارة الوعي ، ومفتقر الى المعنى الذي تعطيه له الإشارات .

يقودنا ما قلناه الى المبدأ المنهجي التالي : لا تعتمد دراسة الأيديولوجيات ، بأي حال من الأحوال ، على علم النفس ، ولا تحتاج إليه أبداً . وكما سنرى ، فإن العكس هو الصحيح : يجب على علم النفس الموضوعي أن يعتمد على دراسة الأيديولوجيات . إن واقع الظواهر الأيديولوجية هو الواقع الموضوعي للإشارات الاجتماعية . وإن قوانين هذا الواقع هي قوانين الإيصال الإشاري ، التي تتحدّد مباشرة بمجمل القوانين الاجتماعية والاقتصادية ، فالواقع الايديولوجي هو بنية فوقية تقوم مباشرة فوق الأساس الاقتصادي ، وأن الوعي الفردي ليس مهندس هذه البنية الفوقية الأيديولوجية ، بل مجرد مستأجر يقيم في البناء الاجتماعي للإشارات الأيديولوجية .

عندما نفصل منذ البدء ، إذن ، الظواهر ، الأيديولوجية عن الوعي الفردي ، فاننا نربطها بوضوح بشروط وبأشكال الإيصال الاجتماعي . إن وجود الاشارات ليس إلا هذا الإيصال في تجسّده المادي ، وفي هذا الايصال تقوم طبيعة كل الإشارات الايديولوجية .

لكن هذا الوجه الاشاري ، وهذا الدور المستمر للإيصال الاجتماعي كعامل شرطي لا يعطي كل إبانتـه ، ولا يبلغ كل وضـوحه وتحـديده في أي مستـوى إجتماعي إلا في مستـوى اللغة . **إن الكلمة هي الظاهرة الأيديولوجية بامتياز** . ووجودها كله مستنفذ في وظيفتهـا الإشاريـة ، فهي تتضمن أي شيء غير مرتبط بهذه الوظيفة ، أو لا يدين بولادته إليها . إنها نمط العلاقة الاجتماعية الأكثر نقاء والأكثر وضوحاً .

إن ما تمثّله الكلمة في دقة دلالتها ، وفي ما تمثّله كظاهـرة إيديـولوجية ، وفي الوضـوح البيّن لبنيتها الإشاريـة ، يجب ان يعطينـا أسبابـاً كافيـة كي نضـع الكلمـة في المستوى الأول لدراسـة الأيديولوجيات ، ففي الكلمة ، وليس في غيرها تتكشّف بشكل واضح أشكـال الأساس ، الأشكـال الأيديولوجية العامة للإيصال الإشاري .

ليست الكلمة هي الإشارة الأكثر نقاء والأكثر إيضاحاً فحسب ، فهي إضافة الى ذلك إشارة **محـايدة** . إن جميـع الأنساق الإشـارية تتميّـز في هـذا الفضـاء أو ذاك من فضـاءات الإبـداع الأيديولوجي ، فلكل ميدان مواد الأيديولوجية الخـاصة بـه وهو يصـوغ إشارات ورمـوزاً له وغير قابلة للتطبيق على ميادين أخرى . تخلق الوظيفة الأيديولوجية المتميّزة ، إذن الإشارة ، وتظل هذه غير قابلة للانفصال عنها . أما الكلمة . فهي ، على عكس ذلك ، محايدة إزاء أية وظيفة إيديولوجية متميّزة ، **فيمكنها أن تملأ وظائف إيديولوجية من كل الأنواع : جمالية علمية ، أخلاقية ، ودينية** .

يوجد إضافة الى ذلك وجه للإيصال الأيديولوجي لا يمكن ربطه بفضاء إيديولوجي خـاص : ونعني بذلك **الايصال في إطار الحياة العادية** . إن هذا النموذج من الإيصال غني ومهم للغـاية ، فهو من ناحية ، يرتبط مباشرة بمجمل سيرورة الانتاج ، كما أنه ، من ناحية أخـرى ، يقترب من فضاءات عدة إيديولوجيات متخصصة ومنمـذجة . سنعـود لاحقاً إلى هـذا الميدان الخـاص الذي تؤلّفه إيديولوجيـا الحياة اليـومية ، ولنكتفِ الآن بـالقول : إن المـادة المتميّزة للإيصـال في الحياة العادية ، اليومية ، هي الكلمة ، ففي هذه المادة تقوم المحادثة وأشكالها كنمط للقول .

تتمتع الكلمة بخاصية أخرى ، ذات أهمية عـالية وهي التي تجعـل من الكلمة الأداة الأولى للوعي الفردي . فعلى الرغم من أن واقع الكلمة ، كواقع أيـة إشارة أخـرى ، ينتج عن اتفـاق بين الأفـراد ، فإن الكلمـة هي في نفس الوقت نتاج الأدوات الخـاصة بـالعضويـة الفـرديـة ، بـدون الاستعانة بأية لوازم أخرى او اللجوء الى اي نوع من المواد الخـارجة عن الجسد . يُحدد هذا دور الكلمة كمادة إشـارية للحيـاة الداخلية للوعي (القـول الداخلي) . وفي الحقيقـة ، فإن الوعي لا يستـطيـع أن يتـطور إلا إذا كـانت تحت تصـرفـه مـواد قـابلة للتكيّف ، يقـوم الجسـد بنقلهـا وبإيصالها . إن الكلمة هي بـالضبط هـذا النموذج من المـواد ، فهي ، إن أمكن القول ، صـالحة للاستعمال كإشارة داخلية ، وتستطيع أن تقوم بوظيفتهـا كإشـارّة بلا تعبيـر خارجي . لهـذا فإن مسألة الوعي الفردي ، هي **كمسألة الكلمة الداخلية** (كإشارة داخلية بشكل عام) تكوّن إحدى المسائل الأساسية في فلسفة اللغة .

من الواضـح الآن ، أنه لا يمكن طرح هـذه المسـألة بشكـل صحيـح ، إلا إذا تخلينـا عن

المفاهيم التقليدية للكلمة وللغة كما يحددهما علم اللسانيات الاجتماعي وفلسفة اللغة . فلا يمكن إدراك كيف تقوم الكلمة بوظيفتها كأداة للوعي ، إلا إذا قمنا بتحليل عميق ونافذ لمعنى الكلمة كإشارة اجتماعية . فبفضل دور الكلمة كأداة للوعي ، تؤدي الكلمة وظيفتها **كعنصر أساسي جوهري مواكب لكل إبداع إيديولوجي** ، مهما كان شكله ، **فهي** تواكب كل فعل إيديولوجي وتفسّره . إن سيرورات فهم كل الظواهر الأيديولوجية (لوحة فنية ، قطعة موسيقية ، طقس أو سلوك إنساني) لا يمكن أن تتم بدون مشاركة القول الداخلي . فكل تجليات الابداع الايديولوجي ، وكل الاشارات اللاشفهية ، تسبح في هذا القول ، ولا يمكن لا أن تعزل عنه كلياً ولا أن تفصل عنه كلياً .

لا يعني هذا ، بالتأكيد أن الكلمة تستطيع ان تحل محل أية إشارة إيديولوجية أخرى . إن أية إشارة من الإشارات الايديولوجية المتميّزة ، والأساسية ، لا تقبل الاستبدال كلياً بالكلمات . فلا يمكن في التحليل الأخير القيام بتاليف موسيقي أو بتمثيل تصويري بطريقة موائمة بواسطة الكلمات ، كما أن الكلمات لا تستطيع أن تحل كلياً محل طقس ديني ، أكثر من ذلك ، فهي لا تتضمن بديلا لفظياً موائماً بشكل حقيقي للحركة الانسانية الأكثر بساطة . إن إنكار ذلك يؤدي إلى العقلانية وإلى التبسيطية المبتذلة . مع ذلك ، فان كل إشارة من هذه الإشارات الايديولوجية ، وإن لم تكن قابلة للاستبدال بالكلمات ، فانها تستند في ذات الوقت إليها ، وتظل متلازمة معها ، فالكلمة تلازم الاشارة كما تلازم الموسيقى النشيد .

حينما تحصل أية إشارة صادرة عن ثقافة معينة على معنى معين ، يدركه الفكر ، فإنها تظل معزولة : تصبح الاشارة جزءا من **وحدة الوعي المكوّن شفهيا** . فالوعي قادر على طرحها تحت شكل شفهي . هكذا فموجات الصدى المتصاعدة وموجات الرنين الشفهية ، مثل التموجات المتحدة المركزعلى سطح الماء ، تشكل كل منها ، إن أمكن القول ، إشاراتها الأيديولوجية ، على طريقتها . لهذا يمكن القول : يترافق كل انزياح إيديولوجي للوجود في خلال تشكّله ، مهما كانت طبيعة مواده الدّالة ، بانزياح إيديولوجي شفهي ، والانزياح الأخير ، ظاهرة ملازمة بالضرورة للأولى . إن الكلمة حاضرة في كل فعل من أفعال الادراك والتأويل .

إن كل خصائص الكلمة التي قمنا باختبارها ـ نقاؤها الاشاري ، حيادها الايديولوجي ، تضمنها في الايصال الانساني العادي ، إمكانية استبطانها ، وأخيرا ، حضورها الاجباري ، كظاهرة مرافقة في كل فعل واع ـ تجعل منها الموضوع الأساسي في دراسة الايديولوجيات . كما أن قوانين الانزياح الأيديولوجي للوجود في علاقته بالقانون وبالوعي ، وأشكاله وآليته ، يجب ان تدرس قبل كل شيء إنطلاقا من المادة التي تكوّنها الكلمة . إن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تفضي بالمنهج الاجتماعي الماركسي الى الاقتراب من كل اعماق ومن كل رهافة البنى الايديولوجية « المحايثة » هي الانطلاق من فلسفة اللغة منظوراً إليها كـ « فلسفة الاشارة الايديولوجية » . ويتعين على الماركسية ذاتها أن تتلمّس هذا الطريق وأن تمهّده .

عن علاقة البنية التحتية بالبنى الفوقية :

تتكشف مسألة العلاقات بين البنية التحتية والفوقية ، والتي هي إحدى المسائل الأساسية في الماركسية ، كمسألة وثيقة الصلة ، في سلسلة كاملة من وجوهها الجوهرية ، بمسائل فلسفة اللغة . لهذا ، فإن حل هذه المسائل ، او الاقتراب منها ، على الأقل ، بشكل معمّق ، سيعود على الماركسية بفائدة كبيرة . ففي كل مرة ، يطرح سؤال معرفة كيف تحدد البنية التحتية الأيديولوجيا ، يجيء الجواب صحيحاً ، ولكن غارقاً في عموميته ، أي يجيء ملتبساً : « السببية » . إذا كان المقصود بذلك سببية ميكانيكية ، كما هو الحال حتى الآن في التيار الوضعي للمدرسة الطبيعية ، فإن الجواب سيتكشف حينئذ زائفاً بشكل كامل ومتناقضاً مع أسس المادية الجدلية ذاتها .

إن فضاء تطبيق مقولة السببية الميكانيكية محدود للغاية : وحتى في العلوم الطبيعية ، فإنه يتراجع بقدر ما توسّع المادية الجدلية حقل تطبيقاتها وتقوم بتعميق أطروحاتها . لذلك فمن غير الوارد على الاطلاق ، تطبيق هذه المقولة السكونية على المسائل الأساسية للمادية التاريخية وعلى كل علم الايديولوجيات .

إن إيضاح علاقة البنية التحتية ببعض الظواهر المعزولة والمنخلعة عن سياقها الأيديولوجي الكامل والوحيد ، لا يقدم أية قيمة معرفية . فقبل كل شيء ، ينبغي إقامة المعنى لتحويل إيديولوجي معطى في سياق الأيديولوجيا الموافقة . واعتبار ان كل فضاء ايديولوجي يتقدم كمجموع وحيد لا يقبل القسمة وتستجيب عناصره كلها لتحويل في البنية التحتية . لهذا ينبغي أن يأخذ كل شرح في حسابه **الفرق الكمي** بين فضاءات التأثير المتبادل ويتابع خطوة خطوة كل مراحل التحويل . وفقاً لهذا الشرط فقط ، يمكن أن يفضي التحليل ، لا الى توافق سطحي لظاهرتين عارضتين وقائمتين في مستويات مختلفة ، بل إلى سيرورة اجتماعية ديالكتيكية حقا ، تصدر عن البنية التحتية وتأخذ شكلاً في البنى الفوقية .

يؤدي جهل خصوصية المواد الإشادية الايديولوجية ، إلى إرجاع الظاهرة الأيديولوجية ، الأمر الذي يعني ، إما الاقتصار على الاهتمام بقيمتها الدلالية العقلية وشرحها (مثال ذلك : المعنى التمثيلي المباشر لعمل أدبي ما : رودين — « الرجل النافل ») بعد ربط هذه الدلالة بالبنية التحتية (هنا ، إفقار النبلاء ، مصدر موضوعة « الرجل النافل » في الأدب) أو ، على نقيض ذلك ، إلى عزل المركب السطحي ، « تكنيك » ، عن الظاهرة الأيديولوجية (مثال : التكنيك المعماري ، أو تكنيك الملونات الكيميائية) ويتم في هذه الحالة استنباط « التكنيك » مباشرة من المستوى التقني للانتاج .

إن هاتين الطريقتين في استنباطهما الأيديولوجيا انطلاقاً من البنية التحتية يبتعدان كثيراً عن جوهر الظاهرة الأيديولوجية . فحتى لو كان التوافق المقام صحيحاً ، وحتى لو كان « الرجل النافل » قد ظهر فعلاً في الأدب كانعكاس لانحطاط النبالة الاقتصادي ، فإن ذلك لا يعني أبداً أن

الهزات الاقتصادية الموافقة قد ولدت عن طريق السببية الميكانيكية نماذج « الرجل النافل » . في الصفحات الروائية (إن فراغ هذا الافتراض واضح كل الوضوح) . هذا أولاً ، وثانياً ، فإن هذا التوافق ذاته ليس له أية قيمة معرفية ، طالما انه لا يبيّن لا الدور الخاص لـ « الرجل النافل » في بنية العمل الروائي ، ولا الدور الخاص للرواية في مجمل الحياة الإجتماعية .

أليس من الواضح أن بين تحولات البنية الاقتصادية وظهور « الرجل النافل » في الرواية يوجد مسار طويل يمر بسلسلة : من الفضاءات المتفارقة كيفياً ، والتي يحمل كل منها سلسلة من القواعد المميّزة ، وصفة خاصة به ؟ أليس من الواضح أن « الرجل النافل » لم يظهر في الرواية بطريقة مستقلة وبدون أية رابطة مع العناصر الأخرى المكوّنة للرواية ؟ على العكس من ذلك ، فإن الرواية في مجموعها قد تبنينت ككل واحد ، عضوي ، خاضع لقوانينه الذاتية المميّزة . كما أن عناصر الرواية الأخرى ، تركيبها ، أسلوبها ، قد تبنينت وفقاً لذلك . لكن تبنين الرواية هذا ، قد تمّ ، أيضاً ، في علاقة وثيقة مع التحولات الأخرى في مجمل الحركة الأدبية .

إن مسألة **العلاقة المتبادلة** بين البنية التحتية والبنى الفوقية ، والتي هي مسألة شديدة التعقيد وتتطلّب ، من اجل حل سليم ، كمية هائلة من المواد التمهيدية ، يمكن أن تعثر على وضوحها ، وبمقدار كبير ، عن طريق دراسة المواد الشفهية .

من هنا ، فإن جوهر المسألة ، في الاطار الذي نهتم به ، يقود الى سؤال معرفة كيف يحدد الواقع (البنية التحتية) الإشارة ، **وكيف** أن الإشارة تعكس وتزيح الواقع في صيرورته .

إن خصائص الكلمة من حيث هي إشارة إيديولوجية ، وكما قمنا بإيضاحها في الفصل الأول ، تقدم مادة موائمة بغية توجيه المسألة نحو مستوى المبادىء الضرورية . إن ما يهمنا أولاً ، هو ليس النقاء الإشاري للكلمة في العلاقة التي نقاربها ، بل الحضور الكامل للكلمة في العلاقات الاجتماعية . فمن الحقيقة بمكان ان الكلمة تتسلل حرفياً الى كل العلاقات بين الأفراد ، وإلى علاقات التعاون ، والعلاقات ذات الأساس الأيديولوجي ، واللقاءات العارضة في الحياة اليومية ، وإلى العلاقات ذات السمة السياسية ، الخ .. تنتسج الكلمات من مجموع خيوط إيديولوجية ، مشكلة نسيجاً لكل العلاقات الاجتماعية في مختلف الميادين . من الواضح إذن أن الكلمة هي دائماً **المشير** الأكثر دقة الى كل التحولات الاجتماعية ، بما فيها تلك التي لم تتحدد معالمها بعد ، أو لم تعثر بعد على شكلها الموائم ، أو تلك التي لم تمهد الطريق بعد لأنساق إيديولوجية ذات بنية وشكل . أو لنقل : تؤلف الكلمة الوسط الذي تتناتج فيه التراكمات الكمية البطيئة الممهدة للتغيير والتي لم تجد بعد الزمن المطلوب لاكتساب صفة إيديولوجية جديدة ، أو التي لم تجد بعد الزمن المطلوب لتوليد شكل إيديولوجي جديد ومُنجَز . إن الكلمة قادرة على تسجيل المراحل الانتقالية الأقل شأناً ، والاسراع زوالاً ، في التغيرات الاجتماعية .

إن ما نطلق عليه اسم نفسية الجسم الاجتماعي والذي يؤلّف ، وفقاً لنظرية بليخانوف وغالبية الماركسيين ، ما يشبه حلقة وسيطية بين البنية الاجتماعية ـ السياسية والأيديولوجيا

بالمعنى الضيق للكلمة (العلم ، الفن ، الخ) يتحدد ويأخذ صفة مادية ، في شكل التفاعل الشفهي . وإذا تعاملنا معه بمعزل عن سيرورة الإيصال الحقيقية والتفاعل الشفهي (أو ، بشكل أعم ، الإشاري) فإن نفسية الجسم الاجتماعي تتحوّل إلى مفهوم ميتافيزيائي أو أسطوري (« الروح الجمعية » ، « اللاوعي الجمعي » ، « روح الشعب » ، الخ) .

لا تقع نفسية الجسم الاجتماعي في مكان داخلي ما (داخل « أرواح » أفراد يتبادلون الحديث في وضع معين) فهي على العكس ظاهرية بشكل كامل : تستظهر في الكلمة ، في الإشارة ، في الفعل . لا يوجد فيها ما لا يمكن شرحه ، أو ما يستسرّ ، فكل شيء ظاهر على السطح ، ظاهر في التبادل ، إنه في المواد ، وفي المواد الشفهية بشكل خاص .

تُحدّد علاقات الانتاج والبنية الاجتماعية ـ السياسية المشروطة بها كل الاتصالات الشفهية المحتملة بين الأفراد ، وكل أشكال ووسائل الإيصال الشفهي : في العمل ، في الحياة السياسية ، في الابداع الايديولوجي . ومن ناحيتها ، تتكشّف الأشكال وموضوعات الفعل الكلامي كوجود يحدّد شروط وأشكال ونماذج الايصال الشفهي . ليست نفسية الجسم الاجتماعي الا الوسط الاجتماعي المحيط الذي تتم فيه الأفعال الكلامية بكل انواعها ، والذي تسبح فيه كل أشكال ووجوه الابداع الايديولوجي المتصل : أحاديث الأروقة ، تبادل الآراء في المسرح او في الحفلات الموسيقية ، في التجمعات الاجتماعية المختلفة ، في اللقاءات العابرة ، نمط رد الفعل الشفهي في مواجهة وقائع الحياة والأمور اليومية ، القول الداخلي ووعي الذات ، الوضع الاجتماعي ، الخ . تتجلى نفسية الجسم الاجتماعي بشكل أساسي في أوجه « الإخبار » المتعددة في شكل أنماط القول المختلفة ، سواء كان القول داخلياً او خارجياً . إن هذا الميدان لم يكن موضوع أية دراسة حتى الآن . وهذه التجليات الشفهية مرتبطة ، بلا شك ، بنماذج أخرى من التجليات والتفاعلات ذات الصفة الإشارية ، ومرتبطة بالايماء ، باللغة الايمائية ، وبالحركات المشروطة ، الخ ...

ترتبط أشكال التفاعل الشفهي هذه بشكل وثيق بشروط وضع اجتماعي معين وتستجيب بشكل ملموس لكل تبدلات الظرف الاجتماعي ، وبسبب هذه الاستجابة ، تتراكم في نفسية الجسم الاجتماعي ، الذي يأخذ قواماً مادياً في الكلمة ، تغيرات وتبدلات غير ملحوظة ، تجد في زمن لاحق ، تعبيرها في أشكال الانتاج الايديولوجي المُنْجَز .

يمكن أن نستخلص مما تقدم الوقائع التالية : يجب دراسة نفسية الجسم الاجتماعي من وجهتي نظر ، أولهما ، من وجهة نظر **مضمونها** ، أي من وجهة نظر الموضوعات التي تحققت فيها في لحظة معينة ، وثانيهما ، من وجهة نظر **نماذج وأشكال القول** التي أخذت فيها هذه الموضوعات شكلها ـ فُسّرت ، أُدركت ، فُهمت .

إقتصرت دراسة نفسية الجسم الاجتماعي ، حتى الآن ، على وجهة النظر الأولى ، أي على إيضاح البعد الموضوعاتي المتضمن فيها . بل أكثر من ذلك ، فحتى هذا البعد الذي يعنى بمعرفة اين يتم البحث عن المراجع الموضوعية ، أي عن التعبير الذي أصبح مادياً لنفسية الوعي

الاجتماعي ، لم يطرح أيضاً في وضوح كافٍ، إذ كانت مفاهيم « الوعي » ، « النفسية » ، و « العالم الداخلي » تلعب دورها التعس ، ملغية ضرورة البحث عن الأشكال المادية المحددة لتعبير نفسية الجسم الاجتماعي .

مع ذلك ، فإن سؤال الأشكال المحددة له دلالة مباشرة . فهو بلا شك ، ليس سؤالاً عن مصادر معرفتنا لنفسية الجسم الاجتماعي في هذه الفترة او تلك (مثلاً : المذكرات ، الرسائل ، الأعمال الأدبية) ، ولا عن مصادر فهمنا لـ « روح الفترة ، فهو يدور بالضبط حول الأشكال ذاتها التي تعيّن فكر هذه الفترة ، أي أشكال الإيصال في إطار الحياة وفي حقل الإشارات . إن دراسة العلاقة بين هذة الأشكال هي إحدى المسائل الأكثر أهمية في تطور الفكر الماركسي .

سنقترب في السطور القادمة ، وبترابط مع مسألة الإخبار والقول ، من مسألة السجلّات اللغوية . نسوق ، هنا ، وبكل بساطة الملاحظة التالية : كل حقبة وكل مجموعة اجتماعية لها فهرسها الخاص لأشكال القول في الإيصال الاجتماعي ـ الايديولوجي . ويتوافق مع كل مجموعة من الأشكال المنضوية في سجل واحد ، أي مع كل شكل للقول الاجتماعي ، مجموعة من الموضوعات . يؤلف شكل الإيصال (مثلاً : علاقات التعاون بين عاملين في سياق تقني محض) ، وشكل الإخبار (رد مختزل » في « لغة إدارية ») وأخيراً الموضوعة ، وحدة عضوية لا يمكن هدمها أبداً . لهذا نقول : يجب ان يستند تصنيف أشكال الإخبار على تصنيف أشكال الإيصال الشفهي . تتحدد هذه الأشكال الأخيرة كلياً بعلاقات الانتاج وبالبنية الاجتماعية ـ السياسية . ويمكن لتحليل مرهف أن يكشف عن الأهمية القصوى لـ « المركّب المرتبي » في سيرورة التفاعل الشفهي ، وعن التأثير القوي الذي يمارسه التنظيم المتراتب للعلاقات الاجتماعية على أشكال الإخبار . إن احترام « قواعد الأصول » و « لياقة الحديث » والأشكال الأخرى لتلائم الإخبار مع التنظيم المتراتب للمجتمع ذات أهمية كبيرة في سيرورة إيضاح أنماط السلوك الرئيسية .

كل إشارة ، كما نعلم ، هي نتيجة اتفاق بين افراد منظمين اجتماعياً عبر سيرورة تفاعل محددة . لهذا فإن أشكال الإشارة بقد ما هي مشروطة بالتنظيم الاجتماعي للأفراد المشار إليهم فإنها مشروطة أيضاً بالشروط التي تم فيها التفاعل . يستلزم كل تعديل في هذه الأشكال تعديلاً للإشارة . إن هذا الامر هو الذي يجعل من دراسة التطور الاجتماعي للإشارة اللسانية احدى مهمات علم الايديولوجيات . وهذه هي المقاربة الوحيدة التي يمكن ان تعطي تعبيراً عينياً لمسألة التأثير المتبادل بين الاشارة والوجود ، واعتماداً على هذا الشرط فقط يمكن لسيرورة التحديد السببي للاشارة بالوجود ان تظهر كانتقال حقيقي من الوجود الى الاشارة ، وكسيرورة انزياح ديالكتيكية حقاً للوجود إلى الإشارة (الانعكاس المنزاح للوجود في الإشارة) .

لهذا السبب ، فمن الضرورة بمكان أن نلاحظ القواعد المنهجية التالية :

١ ـ عدم فصل الأيديولوجيا عن الواقع المادي للإشارة (كوضعها في حقل « الوعي » أو في أي فضاء آخر غائم وغير قابل للتحديد) .

٢ ـ عدم فصل الإشارة عن الأشكال العينية للإيصال الاجتماعي (التذكير بان الاشارة تشكل جزءا من نظام إيصال اجتماعي منظّم ، وليس لها وجود خارج هذا النظام ، إلا كموضوع فيزيائي) .

٣ ـ عدم الفصل بين الايصال وأشكاله عن أساسها المادي (البنية التحتية) .

كل إشارة إيديولوحية ، بما فيها الإشارة اللسانية ، تتحقق في سيرورة علاقات اجتماعية ، تحمل آثار **الأفق الاجتماعي** لفترة تاريخية ولمجموعة اجتماعية محددة .

قاربنا ، حتى الآن ، شكل الاشارة ، كما تحدّده أشكال التفاعل الاجتماعي ، سنقترب الآن من نقطة أخرى ، هي مضمون الإشارة **وقرينة القيمة** التي تؤثر على كل مضمون .

نجد في كل مرحلة من تطور المجتمع مجموعات من الأشياء الخاصة والمحدودة ، التي تلفت اهتمام الجسم الاجتماعي ، والتي تأخذ لذلك قيمة خاصة . هذه المجموعات من الأشياء هي الوحيدة التي تولد الإشارات ، وتصبح عنصراً في الإيصال الإشاري . كيف يمكن ان نحدّد هذه المجموعات التي تتمتع بقيمة خاصة ؟

حتى يدخل الشيء ، مهما كان مستوى الواقع الذي ينتمي اليه ، إلى الأفق الاجتماعي لمجموعة اجتماعية ، ويثير رد فعل إشاري ـ إيديولوجي ، ينبغي ، كشرط أساسي ، أن يكون مرتبطاً بالشروط الاجتماعية ـ الاقتصادية لهذه المجموعة ، وأن يؤثر من قريب أو بعيد على أسس وجودها المادي . مما لا شك فيه ، أن العلاقة الفردية عاجزة عن لعب أي دور في هذا المجال ، لأن الإشارة تخلق ذاتها بين الأفراد ، في الوسط الاجتماعي فمن الضرورة إذن أن يكتسب الشيء دلالة اجتماعية ، وفي هذه اللحظة فقط يمكن ان يفسح مجالاً لتشكيل الإشارة . بمعنى آخر : **لا يمكن أن يدخل في ميدان الأيديولوجيا ، ويأخذ فيها شكلا ويتجذر فيها . إلا ما اكتسب قيمة اجتماعية** . لهذا ، فإن قرائن القيمة ذات الصفة الايديولوجية ، تؤلف ، على الرغم من أنها تحققت في أصوات الافراد (الكلمة مثلاً) أو بشكل أعم في العضوية الفردية ، قرائن قيمة إجتماعية ، فرضها الإجماع الاجتماعي ، وباسم هذا الاجماع فقط تجد شكلها الخارجي في المادة الايديولوجية .

لندعُ الواقع الذي يسمح بتكوين الاشارة باسم موضوعة الاشارة ، فيصبح لكل إشارة مكوّنة موضوعاتها الخاصة . وهكذا كل استظهار شفهي له موضوعته .

تتأثر الموضوعة الأيديولوجية دائماً بقرنية قيمة اجتماعية . وبلا شك ، فان كل قرائن القيمة الاجتماعية للموضوعات الايديولوجية تصل حتى الى الوعي الفردي ، الذي هو ، كما نعلم ، وعي إيديولوجي . وتصبح القرائن هنا ، تقريباً ، قرائن قيم فردية بقدر ما يقوم الوعي الفردي باستيعابها وبتمثّلها . لكن مصدرها ، مع ذلك ، لا ينوجد في الوعي الفردي . إن قرنية القيمة هي بطبيعتها قرنية اجتماعية . لذا تفتقر صرخة الحيوان ، والتي هي رد فعل العضوية الفردية على الألم ، إلى قرنية قيمة ، فهي ظاهرة طبيعية محضة ، فالصرخة لا تعتمد على المناخ الاجتماعي ،

وبالتالي فانها لا تفرض أي تكوين إشاري مهما قلّ شأنه .

يترابط الشكل والموضوعة في الاشارة الايديولوجية بشكل لا انفكاك فيه ، ولا يمكن ، بالتأكيد التمييز بينهما إلا بشكل مجرد ، ومن الحقيقة بمكان ، أن الشكل والموضوعة ، يستمدان وجودهما ، في التحليل الأخير ، من ذات القوى ومن ذات الشروط المادية . وفي المحصلة ، فإن الشروط الاجتماعية هي التي تربط عنصراً جديداً قائماً في الواقع بالأفق الاجتماعي ، وإن ذات القوى هي التي تخلق أشكال الإيصال الأيديولوجي (المعرفي ، الفني ، الديني ، الخ) ، التي تحدد بدورها أشكال التعبير الإشاري .

وهكذا تنمو موضوعات وأشكال الابداع الايديولوجي في المهد ذاته وتشكل في جوهرها وجهين لشيء واحد . إن سيرورة اندماج الواقع في الايديولوجيا ، وولادة الموضوعات والأشكال ، لا يمكن مقاربتها بوضوح إلا في إطار الكلمة .

انعكست سيرورة الصيرورة التاريخية هذه في اللغة ، على مستوى واسع ، في العالم والتاريخ ، فأصبحت موضوع دراسة علم مستحاثات الدلالات اللسانية ، الذي يلقي الضوء على اندماج أجزاء الواقع التي لم تكن تمايزت بعد في الأفق الاجتماعي لانسان ما قبل التاريخ . ويصدق هذا أيضاً ، وعلى مستوى أقل ، على الفترة المعاصرة ، لأن الكلمة ، كما نعلم ، تعكس بدقة الانزياحات الأكثر خفاء في الوجود الاجتماعي .

لا يقوم الوجود المعكوس في الاشارة ، إلا بالانعكاس فيها ، وفي هذا الانعكاس ينزاح أيضاً . ما الذي يحدّد انزياح الوجود هذا الى الإشارة الايديولوجية ؟ إنه المجابهة بين المصالح الاجتماعية المتناقضة لجماعة إشارية واحدة ووحيدة ، أي **الصراع الطبقي** .

لا تتساوى الطبقة الاجتماعية والجماعة الاشارية . نعني بالتعبير الثاني الجماعة التي تستعمل ذات المصطلح الواحد في الإيصال الايديولوجي . وهكذا ، فإن طبقات اجتماعية مختلفة تستعمل ذات اللغة الواحدة . وبالتالي ، فانه **تتجابه في كل إشارة إيديولوجية قرائن قيمة متناقضة** . تصبح الاشارة هي الحلبة التي يدور فيها الصراع الطبقي . إن تعددية النبرة الاجتماعية للإشارة الايديولوجية هي سمة مهمة للغاية . ويرجع ذلك ، إلى أن هذا التقاطع للقرائن القيمية هو الذي يجعل الاشارة حيّة ومتحركة وقادرة على التطور . إذا إبتعدت الإشارة عن توتّرات الصراع الطبقي ، وإذا وقفت على هامش الصراع الطبقي ، فانها تذبل حتماً ، وتنحط إلى رمز ميت ، تصبح موضوع دراسة علماء اللغة وتفقد دورها كأداة عقلية وحيّة للمجتمع . إن ذاكرة تاريخ الانسانية مليئة بهذه الإشارات الايديولوجية المندثرة ، والعاجزة عن ان تكون حلبة لمجابهة النبرات الاجتماعية الحيّة ، وإذا بقي لهذه الإشارات ما يربطها بخيط خادع بالحياة ، فانه يعود الى ذاكرة عالم اللغة والمؤرخ .

إن ما يجعل الإشارة الايديولوجية حيّة ومتغيرة يجعل منها أيضاً أداة تشوه الواقع وتزيحه . لذلك ، تنزع الطبقة المسيطرة الى إضفاء صفة القداسة على الإشارة الايديولوجية ،

تجعلها تحوّم فوق الطبقات ، وذلك كي تخنق وتكبت الصراع القائم في قرائن القيمة الاجتماعية ، وكي تجعل من الإشارة إشارة أحادية النبرة .

وفي الواقع ، فان كل إشارة ايديولوجية تحمل وجهين في تحديد دلالتها ، فيمكن ان يصبح كل نقد حي ثناء ، وأن تظهر كل حقيقة حيّة للبعض كما لو كانت هي الافتراء بعينه . لا يتكشّف هذا **الديالكتيك الداخلي** للإشارة كلياً إلا في فترات الأزمة الاجتماعية والهزات الثورية . لا يظهر هذا التناقض المحتجب في كل إشارة ايديولوجياً واضحاً للعيان في الشروط العادية للحياة اليومية ، لأن الإشارة الايديولوجية المسيطرة القائمة ، هي دائماً ، رجعية بمعنى ما ، وتسعى ، إن أمكن القول ، إلى تثبيت المستوى المسيطر للتيار الديالكتيكي للحياة الاجتماعية ، وإلى تعظيم حقيقة الأمس كما لو كانت صالحة لكل الأزمنة . ومن هنا تصدر الصفة الزائفة والمشوّهة للإشارة الأيديولوجية في حدود الأيديولوجيا المسيطرة .

هكذا تطرح ذاتها مسألة العلاقة بين البنية التحتية والبنى الفوقية . وفي ذلك ، لم نأخذ بعين الاعتبار الا تعيين بعض وجوه هذه المسألة ، وحاولنا ان نقتفي الطريق الذي يشير الى بحث خصيب في هذا الميدان . وقد كان ضرورياً ان نظهر مكان فلسفة اللغة في هذه الإشكالية . تسمح دراسة الإشارة اللسانية بمعاينة واضحة ومعمّقة لاستمرارية السيرورة الديالكتيكية للتطور الذي يذهب من البنية التحتية الى البنى الفوقية . ولهذا فإن إجتثاث شرح الظواهر الأيديولوجية كما ترسم السببية الميكانيكية ، لا يمكن أن يتحقق بوضوح إلا على أرضية فلسفة اللغة .

ترجمة : فيصل دراج .